الرواية اللوقانيّة عن يوحنا المعمدان (لو ٣: ١-٢٢) وسفر إشعياء النبي
أبعاد النبوءة والحكمة في لوقا - أعمال

ترد الرواية عن يوحنا المعمدان، في سياق السرد اللوقانيّ، كوحدة معنوية تامة ومتجانسة تبتدئ بمقدمة تأريخيّة (لو ٣: ١-٢) وتنتهي بخبر معمودية يسوع (لو ٣: ٢١-٢٢). وفي الآيتين الأولَيين يطالعنا أسلوبٌ أدبي فصيح، حيث نجد افتتاحيةً رسميةً لدعوة يوحنا النبي ودلالةً على محطة جديدة في سياق ما كتبه لوقا إلى هذه النقطة. أما ابتداءً من لو ٣: ٢٣ و حتى لو ٧: ١٨-٣٥، فيخرج يوحنا المعمدان من إطار السرد اللوقاني، ويصبح يسوع، من خلال عرض سلالة أجداده (لو ٣: ٢٣-٣٨)، الشخص الأساسي في هذا الكتاب.

ما يخبره الكاتب في لو ٣: ١-٢٢ هو قصة العلاقة القائمة بين الله وشعبه، هذه العلاقة التي تتعرض للنجاح أو الفشل حسب الموقف الذي يتخذه منها الإنسان. تنجح العلاقة، من جهة، لأن الجماهير والعشارين والجنود يقبلون دعوة يوحنا إلى التوبة (في اليونانية: metanoia) في لو ٣: ٧-١٤. ولكن نقرأ، من جهة أخرى، أنّ هيرودس، صاحب السلطة الدنيوية، يسبّب فشلاً معينًا في العلاقة نفسها عندما يقطع بشكل جذريّ ومفاجئ عمل المعمدان التبشيريّ في لو ٣: ٢٠.

بعدما استلم يوحنا إعلانًا إلهيًا (لو ٣: ٢)، أخذ يبشّر شعب الله بالأحداث الخلاصية المزمع إتمامها، وبضرورة السلوك الملائم للتوبة كي يخلصوا. ويربط لوقا الإنجيلي في الآيات ٤-٦ عمل يوحنا هذا بسفر إشعياء النبي لكي يضع ما يخبره عن المعمدان على الخط التاريخي عينه الذي يتعامل فيه الله مع شعبه بحسب إشعياء.

يعالج هذا المقال وظيفة سفر إشعياء النبي ومعناه داخل كتابات لوقا البشير. وهذا من خلال مقارنة الأساليب والمحتويات بين لو ٣: ١–٢٢ وإش١: ١–٣١. كما أننا سندرس مقدمة سفر إشعياء الثاني التي يقتبس لوقا منها بعض الآيات في لو ٣: ٤–٦، ويستخدم مصطلحاتها التقنية في لو ٣: ١٨. وسنشير أخيرًا إلى نقاط التشابه ونقاط الخلاف بين لوقا وإشعياء، التي تعكس في الشكل والمحتوى العلاقة القائمة بين النبوءة والحكمة في لاهوت لوقا الرؤيوي الحكمي.

ميزات النصوص الإشعيائية

الافتتاحية (إش ١: ١–٣١)

تتميّز افتتاحية سفر إشعياء عن افتتاحيات مُعظم الأسفار النبوية الأخرى بأنها لا تحتوي، مثلها، على رواية دعوة النبي،[١] بل تقتصر، بعد مقدمة قصيرة (إش ١: ١)، على نقل الكلام النبويّ. سبب هذه الظاهرة هو الفترة الزمنية الطويلة التي دُوّن فيها هذا السفر؛ إذ أن الإصحاح الأول الذي كُتب بعد السبي، أي في فترة متأخرة جدًا، لا يقصد أن يدوّن تقريرًا تاريخيًا لأعمال إشعياء النبي، بل أن يلخّص المفاهيم الأساسية المطروحة في السفر كله بالشكل الذي نعرفه اليوم.[٢] يجد القارئ في إشعياء ١ خلاصةً تمهيدية للأوجه اللاهوتية المتعددة والخاصة بهذا الكتاب.

[١] راجع مثلاً الإصحاحات التالية: إر ١؛ حز ١؛ هو ١، التي تبتدئ مباشرةً برواية دعوة النبي. وأما دعوة إشعياء النبي، فنجدها في ٦: ١–١٣.

[٢] راجع طرزي، بولس نديم، **مدخل إلى العهد القديم. الجزء الثاني: التقاليد النبوية** (دراسات كتابية ٧)، بيروت، ١٩٩٨، ١٤٨–١٤٩ و١٥٤–١٥٥؛

Luc, Alec, *Isaiah 1 as structural Introduction*, in: Zeitschrift fuer alttestamentliche Wissenschaft 101 (1989), 115.

بالرغم من خصوصية هذا الإصحاح المشار إليها أعلاه، نجد في الآية الأولى من سفر إشعياء بداية تشبه بدايات الأسفار النبوية الأخرى، وهي **مقدمة تأريخية** تربط زمن أقوال النبي وأعماله بزمن أصحاب السلطة المعاصرين له[٣]. ثم يستدعي إشعياء السماءَ والأرض لكي تكونا شاهدتين تمثلان الكون بكامله (إش ١: ٢أ) ويأخذ يعظ بأقوال الرب التي تتكون في الأول من توبيخ طويل للشعب (إش١: ٢ب–١٥) يفضح فيه النبي وضع الشعب المُحزن والخاطئ (إش ١: ٢ب–٩) ويشير إلى ذبائحهم وعبادتهم المرائية والفارغة (إش ١: ١٠–١٥). تلحق التوبيخ هذا دعوةٌ إلى الاعتناء بالمساكين والمظلومين كمقابل للخطايا والأعمال الرديئة التي يرتكبها الشعب (إش ١: ١٦–١٧). إنّ الدعوة هذه إلى التوبة هي المرافق الطبيعي للكلام المهدِّد السائد في هذا الإصحاح لأن الفرصة الوحيدة للخلاص أمام الأيام الأخيرة الآتية هي التعامل مع الفقراء والمظلومين بحق وبرّ والاعتناء الملتزم بهم (إش ١: ١٠–٢٠). أضفْ إلى ذلك أن التوبة المقصودة هنا هي مفهوم سائد في معظم النصوص الكتابية يدل على **العودة إلى السلوك في الحياة بحسب إرادة الله** وهي تعود إلى الكلمة العبرانية (شُوب) المترجمة في اليونانية بـ (metanoia) أو (epistrophe).[٤] وسيتبنّى لوقا هذا المفهوم للتوبة في عرضه لخطاب المعمدان وتعليمه كما سنرى فيما بعد.

ويتابع النبي خطابه في الآيات ١٨–٢٠ بلهجة هجومية في حال استمرار المستمعين في خطيئتهم، وبلهجة الرجاء في حال اتّخذوا طريق التوبة. ويبتدئ من الآية ٢١ قسم جديد في سياق الكلام حيث ينحب النبي على برّ أورشليم المفقود والفساد السائد بدلاً منه (إش ١: ٢١–٢٣). ولذلك يسمي الله شعبه عدوًّا وينذرهم بالدمار لكي يعود البرّ يحكم في داخل أسوار أورشليم (إش ١: ٢٤–٢٨). وهذا يعني ان الله سيضع حدًّا للأعمال الظالمة وفي الآن نفسه سيفتدي ويخلّص أبراره المساكين.

---

[٣] راجع المقدمات التأريخية في إر ١: ١–٣؛ حز ١: ١–٣؛ عا ١: ١؛ حج ١: ١؛ زك ١: ١.

[٤] راجع إش ١: ٢٧. بينما النص العبراني من إش ١: ٢٧ يستعمل الجذر (شُوب) للتعبير عن *"التوبة"*، يترجم النص السبعيني هذا المصطلح بكلمة (eleemosyne)، أي *"الصدقة"*، مفسرًا هكذا مفهوم التوبة كمعاملة الفقير بالبر والحق.

وينتهي الإصحاح الأول من إشعياء بالتشديد على كون الرب ديّانًا في مجيئه (إش ١: ٢٩–٣١). وهذه الفكرة هي من أهم العناصر في البشارة الإشعيائية.

مطلع سفر إشعياء الثاني (إش ٤٠: ١–١١)

إنّ سفر إشعياء الثاني المسمَّى أيضًا **سفر تعزية إسرائيل** والمدوّن في الإصحاحات ٤٠–٥٥ هو أوّل سفر نبوي يقتصر كلامه على "**أخبار سارّة**".[٥] ولذلك يستشهد الإنجيليون الأربعة بمقاطع وأفكار عديدة من هذا الكتاب، وخصوصًا عند الكلام حول آلام المسيح.[٦]

في الإصحاحات الأولى من إشعياء الثاني يُنظَر إلى الله كخالق سائر الكون (إش ٤٠: ١٢–٣١) وإلى عمله الخلاصيّ كفداء أو كفِدية يدفعها الله لاسترجاع شعبه من العبودية إلى أسوار ملكوته (إش ٤٣: ١)[٧]. وسيأثر هذان المفهومان الإشعيائيان بالتشديد على فكر لوقا اللاهوتي في لو ٣: ١–٢٢.

علاوةً على ذلك، نرى في هذه المقدمة ثلاثة مصطلحات لاهوتية أساسية يستعملها لوقا بالتزام عند استعانته بلاهوت إشعياء في لو ٣: ١٨ وهي التالية: الفعلان "*يعزي*" من إش ٤٠: ١ و"*يبشر*" من إش ٤٠: ٩ والاسم "*شعب*" من إش ٤٠: ١[٨].

يعلن الله لشعبه أنّه سينهي آلامهم (إش ٤٠: ١ي) وسيعتني بهم كما يهتم الراعي بخير قطيعه (إش ٤٠: ١١). وأما الشعب، فعليهم أن يستعدّوا لمجيء الرب المجيد، ولذلك ترافق الإعلان الخلاصيّ دعوةٌ إلى التوبة (إش ٤٠، ٤–٨).

---

[٥] راجع طرزي، **مدخل ٢**، ٢١٨.

[٦] راجع:
Sanders, James, *Isaiah in Luke*, in: Evans / Sanders (Ed.), **Luke and Scripture**. The Function of Sacred Tradition in Luke-Acts, Minneapolis, 1993, 14.

[٧] راجع طرزي، **مدخل ٢**، ٢١٨–٢٢٠.

[٨] يلاحَظ في لو ٣: ٤–٦ أنّ لوقا الإنجيلي يستشهد بسفر إشعياء من الترجمة السبعينية. لذلك نذكر النص الإشعيائي في هذا المقال كما يرد في الترجمة اليونانية. راجع بهذا الخصوص:
Schuermann, Hans, **Das Lukasevangelium**. Erster Teil, Kommentar zu Kap. 1,1 – 9,50 (HThK III,1), Freiburg et all., 1982, 160; Fitzmyer, Joseph, **The Gospel according to Luke I-IX** (AB 28), New York, 1981, 461.

إن رجاء الديانة اليهودية من بعد الجلاء بأنّ الله سيتدخل بشخصه في الأزمنة الأخيرة ليخلص شعبه، يستند إلى كلام إش ٤٠: ١–١١. وسيشير المعمدان في القسم الثالث من خطابه (لو ٣: ١٥–١٨) إلى أنّ المسيح الآتي سيحقق هذا الرجاء.

استعمال لوقا للنصوص الإشعيائية

بنية لو ٣: ١–٢١ وفحواه على ضوء إش ١: ١–٣١

تشترك أخبار لوقا حول المعمدان، ببعض النقاط الجوهرية، مع افتتاحية سفر إشعياء النبي. ونجد أولا أن لكلا المقطعين وظيفة أدبية واحدة تحتوي على تقديم مجموعة مختارة من الأقوال التي يُنسبها التقليد إلى هذا النبي أو ذاك. وليس من مقصد هذه النصوص تدوين تاريخ دقيق لأعمال النبيين، بل التعريف بإشعياء الكتابيّ وبيوحنا اللوقانيّ أنّهما حاملا الإعلان الإلهي والمبشران به.

بعد مقدمة تأريخية قصيرة تضع ظهور الكلمة الإلهية في حقبة معينة من التاريخ البشريّ، يبدأ الكلام النبويّ بتوبيخ قصده إنهاض الشعب إلى التوبة (لو ٣: ٧–٩؛ إش ١: ٢ب–١٥ و٢١–٢٣) لأنّ تكاثر الخطايا والآثام يُبعِد إسرائيل عن الله ويهدّد وجوده على الأرض. وكما يسمّي إشعياء الشعب المتمرّد "الشعب الثقيل الإثم" و"نسل فاعلي الشر" (إش ١: ٤)، هكذا يقول المعمدان لمستمعيه "يا أولاد الأفاعي" في لو ٣: ٧ ويرفض كلّ إمكان الهرب من "الغضب الآتي". ويكمّل يوحنا الطرح الإشعيائي معلنًا أن لا وجود للجماعة دون الحفاظ على الإيمان المستقيم (إش ١: ٤–٩) الذي يُعرَف في أعمال البرّ والحق (إش ١: ٤. ١٦ي. ٢١. ٢٣).

لذلك تلي التوبيخ مجموعة من الإرشادات السلوكيّة الاجتماعية بشكل أفعال الأمر والنهي (لو ٣: ١٠–١٤؛ إش ١٦:١–١٧). هكذا وبعد الدعوة إلى التوبة، يُلحّ كلٌّ من يوحنا المعمدان وإشعياء على ضرورة إنصاف المظلومين؛ إذ بهذه الطريقة يُعبِّر بالفعل عن تغيير جذري، قد يفتح للتائبين أبواب الرحمة والخلاص (إش ١: ١٩).[٩] إنّ مبشّرَيّ الأحداث الخلاصيّة يدعوان المستمِعِين إلى مساعدة القريب في كل حاجة مادّيّة (لو ٣: ١٠–١٤) وخصوصًا إلى تحقيق البرّ والحقّ إزاء كل مهمَّشٍ ومظلوم (إش ١: ١٧).

وأما خاتمة العظتين، فهي تحتوي عند يوحنا وعند إشعياء على إعلان الدينونة الآتية (لو ٣: ١٥–١٧؛ إش ١: ٢٤–٣١) وتحمل الدينونة في هذا الإعلان معنى مزدوجًا، إذ هي تعني خلاصًا للأبرار وهلاكًا للأشرار. "اليد" تظهر في النصَّين (لو ٣: ١٧؛ إش ٢٥:١) كمصطلح تقنيّ، وترمز إلى سيادة الله و مسيحه معًا.[١٠]

يقدم الجدول أدناه نظرة شاملة للنقاط المشتركة بين هذَين المقطعَين المتشابهَين:[١١]

الموضوع	لو ٣ :١–٢٢	إش ١ :١–٣١
مقدمة تأريخيّة	١–٢	١
توبيخ	٧–٩	٢ب–١٥ ٢١–٢٣
إرشادات	١٠–١٤	١٦–١٧
إعلان دينونة	١٥–١٧	١٨–٢٠ ٢٤–٣١

---

٩ راجع:

Kilian, Rudolf, **Jesaja 1-12** (NEB.AT 17), Wuerzburg, 1986, 24f.

١٠ راجع طرزي، بولس نديم، **مدخل إلى العهد القديم. الجزء الثالث: المزامير والحكمة** (دراسات كتابية ٨)، بيروت، ١٩٩٩، ٩٣.

١١ هناك بعض التفاصيل حول يوحنا السابق، نذكر على سبيل المثال خبر اعتقاله (لو ٣: ١٩ي) وخبر معمودية يسوع (لو ٣: ٢١ي)، التي ليس لها مقابل في الإصحاح الأول من إشعياء لأنّ وظيفتها المعنويّة تنحصر فقط في داخل السرد الوقاني. هذا لا يمنع الإيجاد بوظيفة أدبية واحدة وبنية لغوية مشتركة في هذين النصين بخطوطهما الأساسية. راجع:

Ayuch, Daniel, **Sozialgerechtes Handeln als Ausdruck einer eschatologischen Vision**. Zum Zusammenhang von Offenbarungswissen und Sozialethik in den lukanischen Schluesselreden (MthA 54), Altenberge, 1998, 46-54.

ويبقى أنّ الآيات لو ٣: ٣–٦ لا شيء يعادلها في الإصحاح الأول من إشعياء، لأنها لا تقصد ربط أعمال المعمدان بالتقليد الإشعيائي بواسطة الأساليب البلاغية فحسب، بل بواسطة استشهاد من كتاب النبي يعطي مدخلاً جوهريًّا لفهم بشارة المعمدان. وهذا ما سندرسه في المقطع التالي.

خلاص الله لكل البشر

فيما استوحى كاتب الإنجيل من الإصحاح الأول من سفر إشعياء بنيةَ رواية المعمدان ووظيفتها الأدبية، نجد أن لاهوت إشعياء الثاني (إش ٤٠–٥٥) يضع الأطر التي تؤسّس مواقف يوحنا السابق وأعماله النبوية. لذلك يقدم لوقا الخطاب المعمداني باستشهاد من إش ٤٠: ٣–٥ ويختمه بجملة مليئة من المصطلحات الخاصة بإشعياء الثاني في لو ٣: ١٨.

نقرأ في لو ٣: ٢ي أنّ "كلمة الله كانت على يوحنا" وأنّه، تاليًا، خرج ليبشّرَ الشعب. ونقرأ أدناه أنّ هذه الأحداث تجري "كما هو مكتوب في سفر أقوال إشعياء النبي." ولا شكّ أنّ هذا القول يهدف إلى ربط السرد اللوقاني في ٣: ١–٢٢ بلبّ إيمان اليهودية الأولى ورجائها بالمسيح الأخروي.

يختار لوقا من بين نبوءات إشعياء الثاني المميَّزة بخبر الرجاء، تمامًا تلك الآيات التي بالرغم من تركيزها على ضرورة التوبة (في اليونانية: metanoia) تعطي قرّاءها وعدًا قاطعًا: "ويبصر كلّ بشرٍ خلاصَ الله" (لو ٣: ٦؛ إش ٤٠: ٥).[١٢] ويختم لوقا الاستشهاد من إشعياء بهذه الجملة لكي يؤكّد أنّ الإله الذي يعلن نفسه في كلام المعمدان هو الله الذي لا إله إلا هو، رب العالم بأسره، الذي يستطيع، تاليًا، أنْ يعلن نهائيًّا خلاصه **لكل البشر**. ونجد في هذا الوعد بالخلاص ما يوازن تهديدات الدينونة في لو ٣: ٧. ٩. ١٧. يجمع لو ٣: ١–٢٢ بتدقيق بين خبر الدينونة وخبر الخلاص لكي يعكس بصورة واضحة الازدواجية "خلاص – دمار" التي تكمن في تدخّل الله النهائيّ.

[١٢] يتميّز لوقا بين الأناجيل الإزائية، بإضافة هذه الجملة إلى الاستشهاد الإشعيائي الذي يقدم أعمال يوحنا المعمدان (راجع مت ٣: ٣؛ مر ١: ٢ي).

أما الدعوة إلى التوبة، إحدى الخصائص الرئيسية في كلام السابق، فتأتي كنتيجة ضرورية أمام الأحداث المعلَنة، وهي أيضًا تعود إلى التقليد النبويّ عامة وإلى نصوص إشعياء الثاني بشكل خاص. إنّ إعداد الطريق لمجيء الرب الذي يتحدث عنه صُوَريًّا إش ٤٠: ٣ي، يتحقق حسب لوقا في كرازة المعمدان بالتوبة. حسب إش ٤٠: ١–١١ يجب على يوحنا أن يُلزِمَ مستمعيه بأعمال التوبة لأنّ مجيء الرب دون التوبة لا يعزّي الشعب، إذْ ليس هناك من شعب الله إن لم يعمل أحد على حسب كلمة الرب وهذا ما يؤكده يوحنا عندما يقول "كل شجرة لا تصنع ثمرًا جيّدًا تقطع وتلقى في النار" (لو ٣: ٩ب).

بالرغم من النبرة التهديديّة القائمة في هذا القول، يؤكد لوقا أن يوحنا كان يكرز معزّيًا الشعب (لو ٣: ١٨). ويمكن هذا لأنّ قسمًا من الجموع الآتية إليه قد سمع الدعوة إلى التوبة الصادرة من لدن الله والتي كان يبشر بها المعمدان. هكذا تتكوّن جماعة جديدة مبنية على بشارة يوحنا وحدها. ويقول إش ٤٠: ١٠ي أن جماعة كهذه يحملها الرب في حضنه وكراعٍ بذراعه يجمعها.

ليس من قبيل الصدفة، إذًا، أن يستعمل لوقا الفعلين "*عزّى*" (في اليونانية: parakaleo) و"*بشّر*" (في اليونانية: evangelizo) عندما يتحدث عن أعمال السابق في لو ٣: ١٨. وهذا لأنّ سفر إشعياء الثاني يتميز باستعمال هذين المصطلحين التقنيَين للتعبير عن الخلاص بفرح ورجاء.[13]

أما المصطلح "*شعب*" (في اليونانية: laos) الذي له وقع كبير في الترجمة السبعينية (٢٠٠٠ مرّة تقريبًا) والوارد في افتتاحية **سفر تعزية إسرائيل**، "عزّوا عزّوا *شعبي* يقول إلهكم" (إش ٤٠: ١)، فيستعمله لوقا في الإنجيل وسفر الأعمال للإشارة إلى الجماعة المؤمنة والمنتظرة الخلاص.[14] في لو ٣: ١–١٨ يُوصف المستمعون أولاً بلفظ الشمولي "جموع" (في اليونانية:

[13] يقع الفعل "*عزّى*" (parakaleo) في الترجمة السبعينية ثلاث عشرة مرة، فيما يذكر الفعل "*بشّر*" (evangelizo) فقط أربع مرات. يقدم الأب بولس طرزي، **مدخل ٢**، ٢١٨، دراسةً في ورود هذين الفعلين في النص العبري الأصلي.

[14] علاوةً على هذه الخصائص تضيف الكتابات اللوقانية عنصرًا مأساويًّا إلى المصطلح "*شعب*" الذين لا يرون في شخص يسوع الناصري المسيح الآتي من لدن الله. وهذا ما نقرأه في لو ٣: ١٥ حيث يصحّح المعمدان توقعات الشعب الخاطئة. راجع:
Loening, Karl, **Das Geschichtswerk des Lukas**. Israels Hoffnung und Gottes Geheimnisse, vol. 1 (UT 455), Stuttgart et all., 1997, 142f; Ayuch, **Handeln**, 74f.

ochloi) وهو لفظ خالٍ من أي طابع خاص(لو ٣: ٧. ١٠).[15] ثم تصير هذه الجموع شعبًا عندما تعترف بابن زخريا كحامل الكلمة الإلهية الحقيقية وتطرح عليه ثلاث مرّات السؤال عينه: "وماذا نفعل نحن؟" (لو ٣: ١٠. ١٢. ١٤).[16]

إنّ نصوص إشعياء الثاني وخصوصًا مطلع سفره (إش ٤٠: ١-١١) توحي مفهوم لوقا الإنجيلي للوظيفة النبوية التي يتممها يوحنا كحامل معرفة إعلانية. وتحتوي هذه المعرفة على خبر تدخل الله لتأسيس مملكته بالبر والحق. وانطلاقاً من هذه الخلفية النبوية يطبق لوقا خصائص حكميّة على شخص المعمدان، تجعل من يوحنا شخصية مميزة تجمع في أعمالها وخطابها بين عناصر النبوءة والحكمة على حدّ سواء.

العناصر الحكميّة لدى المعمدان اللوقانيّ

كما أشرنا في مستهلّ المقال، يروي لو ٣: ١-٢٢ بشكل خاص محاولة اتّصال بين الله و شعبه، تنجح مع البعض وتفشل مع البعض الآخر. من هنا يعرض لوقا أعمال يوحنا السابق كأعمال متكلم عامّ أكثر من أعمال معمدان.[17]

فنرى أن الرواية في لو ٣: ١-٢٢ تحتوي بشكل شبه حصريّ على أفعال القول (راجع لو ٣: ٣. ٧. ١١. ١٣. ١٤. ١٦. ١٨) واللقب الوحيد الذي يحمله يوحنا في هذا المشهد هو لقب "المعلّم" (في اليونانية: didascalos) في لو ٣: ١٢.[18] لذلك يعرّف لوقا في أع ١٣: ٢٤ي بشخصية المعمدان كمعلمٍ "يسبق فيكرز" (آية ٢٤) و"يقول" (آية ٢٥).

---

[15] راجع Ayuch, **Handeln**, 68.

[16] راجع Ayuch, **Handeln**, 48f.

[17] راجع:
Loening, **Geschichtswerk**, 140; Bovon, François, **L'Evangile selon Saint Luc (1,1-9,50)** (CNT IIIa), Geneva, 1991, 167.
إذا قارنّا الأناجيل الإزائية، نلاحظ أنّ مرقس أولاً، ثمّ متى يركّزان على دور يوحنا السابق كـ "الذي كان يعمّد" (راجع مر ١: ٥ ومت ٣: ٦) وهما يهتمان أيضًا بميزات أخرى في شخص المعمدان (راجع مر ١: ٦؛ ٦: ١٧-٢٩؛ مت ٣: ٤؛ ١٤: ٣-١٢).

[18] في كل العهد الجديد لا ينسب اللقب *"معلم"* إلى المعمدان إلا لدى لوقا ويوحنا الإنجيلي (يو ٣: ٢٦). راجع:
Schuermann, **Lukasevangelium**, 148.

تأخذ شخصية المعمدان في خطابه السلوكيّ (لو ٣: ١٠–١٤) أبعاد الشيخ الحكيم كما يعرفه أدب اليهودية الأولى والأدب الربانيّ.[19] يتحدث يوحنا هنا عن السلوك على شكل الخطاب التعليمي، وهو فنّ أدبيّ معروف في الكتابات اليهودية الهلينستية.[20] السؤال السلوكيّ النموذجي "ماذا نفعل نحن؟" (لو ٣: ١٠. ١٢. ١٤) يعبر في لوقا – أعمال عن استعداد التلميذ للتوبة، ويأتي كمقدمة تلك الإرشادات العملية التي تحتاج إليها الجماعة المؤمنة لكي تحسن التصرف في الحياة اليومية، وإزاء الأحداث الخلاصية الآتية. ونجد أبعادًا حكمية حتى في بنية الأجوبة، التي تعود إلى أقصر أسلوب بلاغيّ في الأدب الحكميّ ألا وهو **أسلوب الحضّ** (في الألمانية: Mahnwort).[21]

وفي ختام هذا المقطع نذكّر، من جهة، بأن الشكل الأدبي السائد في حديث المعمدان السلوكي هو **الخطاب التعليمي** الذي يلقيه الشيخ الحكيم جوابًا على أسئلة تلاميذه[22] ولذلك ينادونه بـ "يا معلم" في لو ٣: ١٢؛ وأما من جهة أخرى، فنذكّر بأن مسائل الحياة اليومية هي أهمّ موضوع يعالجه الكلام الحكمي.[23] هكذا نستطيع القول بأن الصورة اللوقانية ليوحنا

---

١٩ في الأدب الرباني يلقب بـ *"معلم"* (في العبرية: *رَبّي*، في اليونانية: didascalos) ذاك الرجل الذي يلم بالتعاليم الإلهية ويستنتج منها نصائحه وإرشاداته لحسن السلوك في الحياة (Rengstorf, Karl, Art. *Didasko*, in: **ThWNT II**, 150-160). في كتابات اليهودية الأولى المذكورة أدناه نجد أن شخصياتها الرئيسية يلعبون دور المعلّم (الشيخ) الحكيم الذي ينادي تلاميذه "يا أولادي". ويعود هذا النداء إلى أصل المدرسة الحكمية اليهودية ونموذجِها الأول، أي إرشادات الأب لأولاده. راجع أم ٢: ١؛ ٥: ١. ٧؛ حك ١٢: ١٢؛ يوب ٣٦: ٤؛ ١ أخن ٩٠: ٤؛ ٩٣: ١؛ وص شمعون ٢: ١؛ وص يساكر ١: ١؛ وص دان ٤: ٥. راجع:

Cortès, Eric, **Los Discursos de Adios de Gen 49 a Jn 13-17**. Pistas para la historia de un género literario en la antigua literatura judía, Barcelona, 1976, 66-68.

٢٠ راجع:

Berger, Klaus, *Hellenistische Gattungen im Neuen Testament*, in: **ANRW** II 25.2, 1303f.

٢١ راجع مثلاً سي ٤: ١–٦؛ أم ٢٥: ٢١ي؛ لو ٦: ٢٧ي. راجع أيضًا:

Zeller, Dieter, **Die weisheitlichen Mahnsprueche bei den Synoptikern** (FzB 17), Wuerzburg, 1977, 21-25.

٢٢ تأتي الإرشادات السلوكية في لو ٣: ١٠–١٤، والتي تقابل إش ١: ١٦ي، في نص طويل ومنظم على نسق النصوص التعليمية التي نجدها أغلب الأحيان في الأدب الحكميّ. راجع سي ٢٩: ١١–١٧؛ ١ أخن ٩٣: ١–٥؛ وص يساكر ٣: ١ي.

٢٣ Zeller, **Mahnsprueche**, 15f.

المعمدان، إلى جانب تأثّرها بالأدب النبوي، تعود أيضًا إلى الأدب الحكميّ السائد في زمن اليهودية الأولى وزمن حياة يسوع الناصريّ.[24]

يوحنا المعمدان كحامل معرفة رؤيوية – حكمية

نستنتج من هذه الدراسة أن لو ٣: ١–٢٢ يقدم دمجًا منسجمًا من النبوءة والحكمة. لدينا، من جهة، التوبيخ والإرشاد اللذان يصحّحان فكر الشعب وتصرّفه اليومي؛ ومن جهة أخرى يأتي المتكلم وهو ينتظر برجاء تدخل الله الأخير كدينونة وخلاص في آنٍ واحد. يخطّط لوقا صورة المعمدان مطبقًا نموذج المعلم الحكيم الذي يعلّم علنًا تحقيق رجاء إسرائيل والتصرف الملائم له.[25]

ليس فقط يوحنا يقوم بدور حامل المعرفة في السرد اللوقانيّ. هناك شخصان أساسيان، يسوع المسيح وبولس الرسول، اللذان يشاركان يوحنا في خصائص حاملي المعرفة، أي في ما يلي:[26]

- رسالتهم تنبع عن إعلان إلهيّ (راجع لو ٣: ٢. ٢١ي؛ ٤: ١٦–٢١؛ أع ٩: ١–٢٠).
- هم *"يبشرون"* (لو ٣: ١٨؛ ٤: ١٨؛ أع ١٣: ٣٢) و*"يعزّون"* (لو ٣: ١٨؛ أع ٢: ٤٠؛ ١١: ٢٣؛ ١٣: ١٥) *"شعب الله"* (لو ٣: ١٨؛ ٢٠: ١. ٩؛ ٢١: ٣٧ي؛ أع ١٣: ١٥).
- كلامهم يحتوي على خبر تدخّل الله الأخروي لخلاص الشعب (لو ٣: ١٧؛ ٤: ١٦–٢١؛ أع ٢٨: ٢٨).

---

[24] في تفسيرها للآيات في لو ٣ التي تعود إلى المصدر " Q"، تشير الباحثة سافِنيخ باكس (Sevenich-Bax) إلى أنّ شخص المعمدان في المصدر "Q" يبقى بعيدًا عن النصوص النبوية حتى يأخذ حصريًا دور المعلم الحكيم. راجع:

Sevenich-Bax, Elisabeth, **Israels Konfrontation mit den letzten Boten der Weisheit**. Form, Funktion und Interdependenz der Weisheitselemente in der Logienquelle (MthA 21), Altenberge 1993, 292ff.

تساهم هذه الدراسة التعاقبية في فهم أبعاد الحكمة في النص المدروس هاهنا.

[25] ويفسر من هذا المنظار لماذا يتميز لوقا بين الأناجيل الأخرى بذكره *"حكمة الله"* كمرسِلة أي كمصدر أقوال *"الأنبياء"*: "لذلك أيضاً قالت *حكمة* الله أني أرسل إليهم *أنبياء* ورسلا فيقتلون منهم ويطردون" (لو ١١: ٤٩؛ قارن مع مت ٢٣: ٣٤–٣٦).

[26] راجع Loening, **Geschichtswerk**, 49; Ayuch, **Handeln**, 5f.

- عليهم أن يتحملوا، بسبب كلامهم الهجوميّ، ردود فعل إعتدائية من قبل المستمعين (لو ٣: ١٩ي؛ ٢٢: ٤٧–٥٣؛ أع ٢١: ٢٧–٣٦).

يقوم يوحنا ويسوع وبولس، في الكتابات اللوقانية، بوظيفة مَن يحمل معرفة خلاصية ويمكّن الاتصال بين الله وشعبه إسرائيل. هم يَدمجون في خطابهم رجاء إسرائيل الأخرويّ بإرشادات حكمية لحسن السلوك في الحياة (راجع لو ٣: ١٥–١٧؛ ٦: ٢٠–٢٦؛ أع ٢٠: ١٨–٢٧ مع المقابل لها في لو ٣: ١٠–١٤؛ ٦: ٢٧–٢٨؛ أع ٢٠: ٢٨–٣٥).

إن دورهم في السرد كمستلمي معرفة إعلانيّة ومبشّرين بها، يساوي دور أبطال الأدب الرؤيوي الحكمي،[27] أحد التيارات الفكرية النابعة عن اليهودية الأولى والذي ترك أثرًا عميقًا في نصوص العهد الجديد عامةً[28] وفي لاهوت لوقا خاصةً.[29]

يروي لوقا الإنجيلي رواية أصل المعرفة المسيحية، لكي يعرف القارئ "اليقين" من الكلام الذي عُلّم به (لو ١: ٤).[30] وفي هذا الإطار يظهر المعمدان "معِدًّا لطريق المسيح". إنّ دور المعمدان كمُعِدّ للطريق يتثبّت في الرواية بواسطة الاستشهاد من إش ٤٠: ٣–٥، ويأتي بشكل سلسلة مبرمجة من الأقوال على نسق إش ١: ١–٣١. نجد بين هذه الأقوال ما يقصد تحريك المستمع إلى معاملة الآخرين بحق وعدالة، مستعملا أساليب بلاغية خاصة بالأدب الحكميّ.

يعتبر المعمدان أن إرشاداته السلوكية تقود إلى "ثمار التوبة" (لو ٣: ٨) لأنّها تعلّم كيف يُطبَّق الموقف الملائم للأزمة الأخروية الآتية على التعاطي اليوميّ مع القريب.

---

[27] راجع مثلاً وص شمعون ٧: ١ي؛ وص لاوي ١: ١ي؛ ٣ عزرا ٨: ٢٦؛ ١ أخن ٩٠: ١–١١.

[28] راجع عيوش، دانيال، *سر الحكمة في الرسائل البولسية*، في: الفغالي، بولس (محرّر)، **بولس ورسائله** (د.ب. ٢٣)، بيروت، ٢٠٠١، ٣٤٥–٣٥٧ وخصوصًا ٣٤٦–٣٤٨.

[29] راجع Ayuch, **Handeln**, 7-10.

[30] راجع Loening, **Geschichtswerk**, 48ff; Ayuch, **Handeln**, 198-201.

بالرغم من إيجازه، نرى في هذا المشهد (لو ٣: ١–٢٢) صورة لاهوتية شاملة للمعمدان، تُعلِن الأحداث الأخروية والإرشادات السلوكية الملائمة لها في نفس الخطاب. يستند هذا المقطع من إنجيل لوقا على سفر إشعياء النبي ليس فقط في الأسلوب والبنية بل أيضًا في المضمون وخصوصًا بما يتعلق بتعليم الرجاء بمسيح أخروي . عندما يستشهد من سفر إشعياء ويستعمل مصطلحاته اللاهوتية، يحدّد لوقا الخلفية الدينية لروايته ويسمح ليوحنا أن يتكلم بكفاءة وسلطة حول خطة إله إسرائيل لأجل خلاص كل البشر.

يخبر لوقا، من جهة، المحطات الأساسية في حياة يوحنا السابق، ويختار من جهة أخرى مجموعة نموذجية من أقوال المعمدان. هكذا تصل إلينا رواية عن يوحنا المعمدان تعكس صورته كمعلم رؤيويّ حكميّ يعلّم تلاميذه حكمة جديدة في التفكير والسلوك اللذين ينبعان عن تلك المعرفة التي أعلن الله فيها تدخلَه الأخير والنهائي.